الضفة الثالثة

كمال ممدوح حمدي

قراءة في وجه الغائب..!

الأبواب المغلقة تستر خلفها الاسرار ، وحين تشرع ينسل الضوء ويتمدد على العتمة ، ثم يعود محملاً بالحكايا التي ينشرها في وضح النهار .

هذا الباب ، نصف المغلق أو نصف المفتوح ، قد تضاءل لحسابه حجم الجدار المثبت فيه ، فلم يتبق منه لرؤيتنا الا شريط ، يشبه اطاراً قديماً لصورة الباب ، ويؤكد بلونه البني الداكن ، المائل الى السواد ، على أهمية حدث وشيك سوف يجري عبر هذه الانفراجة في الباب ، لعله بعد لحظة سيصفق في وجه متطفل سخيف ، أو يفتح عن آخره تهللاً باستقبال قادم عزيز طال انتظاره .

نحن الآن ـ في وضعنا أمام اللوحة ـ داخل هذا البيت (لأننا نرى الباب من الداخل) ، الذي يبدو من طرازه انه بيت عربي قديم ، ومن المهم ان نظل داخل البيت حتى نواصل «الفرجة» على ما يجري ، ان أتمت الفتاة اغلاق الباب أو فتحه ، فلا أحد يعرف بالضبط حدث اللحظة القادمة ، وان كانت يدها اليسرى ترجح انها تجذب الباب اليها لتفتحه ، وتتوارى بكامل جسمها خلفه لتفسح طريقاً للقادم ، الذي باغتها مجيئه فأطرقت الى الارض تلملم خجلاً بريئاً .. «تفضل» ، ثم تتمنى أن تنشق الارض لها .

تلبس الفتاة رداء أحمر بدا في عتمة البيت المحشور داخل الازقة مسوداً ، يجرجر فوق الارض ، وتلتف فوقه بغلالة سوداء تتلون بحمرة الثوب لشدة شفافيتها ، هذا يرجح أنها في سن شابة ماتزال ، أو تجاوزتها بعدة سنوات .

لا يفتح الباب على شارع كبير أو ساحة واسعة ، بل على زقاق ضيق منسقوف ، مما يشير الى وضع البيت ، المنزوي في ركن قصي لايمر به عابر ، حتى نسي عنوانه .. له عتبة تمنع تسرب مياه المطر الى الداخل تشير الى عقبة كؤود يصعب اجتيازها ـ خروجاً او دخولاً ـ وان عبرها شريط من الضوء وتمدد بالداخل ، محملاً بأمل مخاتل، أو مسفوحاً على الارض تشوبه حمرة في جزء منه ليس لها تعليل الا ان تكون اشارة الى اجتراح الامل المراوغ ، المعذب لقلوب بكر ، وقد غدا عصياً لا يطاوع توق السنين ، يتجدد كلما عبرت الشمس بعيداً خارج الازقة .

كل مايقع خلفنا ـ داخل البيت ـ لانراه ، ولكننا قد نتوقع جدة عجوزا ، لا تكف عن طلباتها غير الميسورة لحظة .. احتملت الصغيرة تعب الجدة ، وعز عليها ان تتحمل الاهانة ، فقررت ان تترك البيت ، ثم راجعت نفسها بعد ان فتحته ، فتوقفت ، واسندت راسها الى الباب وانخرطت في البكاء .

وكل ما يقع امام الباب أيضاً لانراه ، ويصعب ان نقرأه في وجه بلا عيون أو تفاصيل للفتاة .. لعله الفارس الذي سيحملها الى بيت مغمور بالضياء ، وان كان وجهها السافر لا يرجح الاحتمال .

وربما كانت الفتاة ، التي انسربت من بين يديها السنوات ، قد خلعت اذنيها وسمرتها على الباب كي تسمع الطارق حين تكون بالداخل .. سمعت طرقات مهذبة خفيضة للقادم الذي تأخر فهرعت الى الباب ، وعندما فتحته عرفت ككل مرة ـ انها كانت واهمة ، وقبل ان تعود توقفت تغالب رغبة في البكاء ، وتستعيد نفسها التي سرقتها الأوهام ، فلا أحد يجيء ..

ربما هي أم غاب وحيدها ، أو زوجة تأخر زوجها واقضها الانتظار ، تغالب القلق كل لحظة ، تفتح الباب وتطل مرة أو مرتين الى الخارج ، وحين لاترى أحداً تتوثق مرة ثالثة قبل أن تعود ، وتتردد في اغلاقه فتبدو هكذا كأنما تفتح الباب وهي تغلقه ...

هناك الف احتمال ، لم يحرص الفنان ـ عبدالجبار اليحيا ـ على التقاط واحد منها وتصويره على نحو ما يفعل الانطباعيون في رصد حالة محددة ، في لحظة محددة ، أو المشغولون بالواقع وتفاصيله الدقيقة بشكل فوتوغرافي ، وانما هو يفسح كل الفرص امام كل الاحتمالات ، وبشكل عادل ، ولهذا أشاحت الفتاة بوجهها بعيداً عنا ، وصرف الفنان نظره بعيداً عن التأمل في تفاصيل وجهها ولو من جانبه .

هل كنا حقاً نتأمل اللوحة التي أمامنا الآن ، وهي بسيطة التكوين الى هذا الحد ؟ أم اننا كنا طوال الوقت مشغولين بأناس آخرين ؟.. تلك العجوز بالداخل ، أو ذلك القادم الذي نرحل من أمام اللوحة قبل ان يجيء ، أو بحدث أوعز الينا الباب ـ وهو يشبه ستار مسرح ينفرج عن مشهد يدور بعد لحظة ـ بأنه وشيك .. ؟

هل كنا نتأمل اللوحة التي أمامنا ، أو صورة لها في دواخلنا تتلون بحالاتنا ومزاجنا ؟

هذه قيمة جمالية في لوحة اليحيا ، التي لاتعطيك نفسها كما هي ، بل تدعوك ـ أو تدفع بك مرتاحاً أو مغتاظاً ـ الى مشاهدة لوحة أخرى لايبدو منها أقل شيء ، فأنت مطالب بان تصنعه على هواك ، تختار الشخوص بنفسك ، وتقيم بينها العلاقات حسبما ترى ، وتحدد المساحات والألوان كيفما تشاء ، وما لايرضيك من هذا كله بوسعك أن تبدله وتحور فيه مع كل مرة تعاود النظر الى الواقفة خلف الباب ، فهي مسجونة في مكانها لن تبرحه ، حاملة اليك الدعوة دائماً .